حصون المدينة المنوّرة فأسوارها وأبوابها

حسن محمد

هذه قراءة موجزة فيما كتب عن آثار (يثرب) المدينة المنورة، بل وبإيجاز عن بعض بلاد الحجاز .. وبالذات عن تلك المواقع أو الأشكال من البناء، التي تطورت فشكلت ظاهرةً عمرانيةً في حياة الناس وأيامهم التي مضت عليهم، وغدت فيما بعد جزءاً مهمّاً من عالم الآثار، الذي تفتخر به الشعوب ..

فقد انبثقت تلك المواقع مما عدّ حاجة فطرية رافقت الإنسان، وهي حماية نفسه وما يملك من الأخطار التي قد تنجم في حياته، فراح انطلاقاً من حاجته تلك يدافع، ويتوسل بأي وسيلة، ويلوذ بأي ملاذ؛ ليوفر له ولمن حوله ملجأً آمناً يحفظ له نفسه وعرضه وماله.. ، ويحقق له النصر على أعدائه، الذين يريدون كيداً به والقضاء عليه...

ومن تلك الوسائل التي استخدمها الإنسان على مرِّ الحقب والعصور؛ نوع من البناء، سواء أكان سدّاً أو ردماً أو سوراً أو جداراً أو حائطاً أو برجاً أو حصناً أو صيصيةً أو قصراً ..؛ المهم أنه شكلُ بناءٍ وإن تعددت أشكاله وأسماؤه، يحميه ويستعين به على المكاره، ويحيط به نفسه أو بيته، أو قريته، أو بلدته، أو ممتلكاته، أو جنده وأعوانه.. ويجعل منه ملاذاً للدفاع عن ذلك كله ضدَّ هجوم ما، وما الردم الذي أنشأه ذو القرنين، حين طلب منه أهلُ القرية سدّاً أو حاجزاً يمنع أن يصل إليهم المفسدون، وهو ما حدثتنا عنه سورة الكهف بالآيتين ٩٤،٩٥:

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُم سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنّي فِيه رَبّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * ...﴾ إلاّ هو وسيلة من وسائل عديدة، اختارها الناس يومذاك حتى يلوذوا بها، ويدفعوا عنهم ما قد يكيده الآخرون لهم ..

لقد أدى هذا النوع من البناء دوراً مهمّاً في المحافظة على المدن سابقاً؛ فقد وفّر لسكانها الأمن والاستقرار والطمأنينة؛ وكان الأهالي في غيابها يخشون هجوم الأعداء، وسطو اللصوص، واعتداء المفسدين؛ لذلك دأبت مختلف الشعوب على بناء هذه العناصر الدفاعية، ورصدت الأموال الطائلة لإنشائها؛ وكان للمدن الإسلاميه الحظ الوافرمن تلك الاستحكامات والمباني الدفاعية، مما جعلها هي الأخرى آمنةً ومستقرةً بوجودها، خائفةً مضطربةً بدونها.

ومن أهم المدن الإسلامية، التي شيّدت حولها الأسوار:

النجف، فقد أُنشيء فيها سور لحمايتها من الهجمات، التي كانت تتعرض لها من قبل الأعداء، وما زالت له بقايا، وإن كانت بسيطةً بعد تهديمها قبل ثلاثة عقود، أو تزيد قليلاً على ما أظن.

وبغداد، وقد عمل لها مؤسسها المنصور العباسي سورين، وكان السور الداخل أطول من السور الخارج ...، وقع ذلك خلال بنائها الذي دام خمس سنوات من سنة ١٤٥ حتى سنة ١٤٩ هجرية، وكانا على شكل بغداد الدائري ...

ودمشق القديمة، وفيها سور أثري، طوله ١٥٠٠ متر، وعرضه ٧٥٠ متراً يحيط بها، ويعدُّ من أهم المعالم الأثرية فيها، ويضمّ قلعة دمشق وأبوابها السبعة؛ ويعود تاريخ إنشائه إلى العهد الآرامي فاليوناني وبعده الروماني ...

وحتى القسطنطينية، كان لها سور بل أسوار على مرِّ الأزمنة، وللذكرى أنَّ الصحابي الجليل أبا أيوب الأنصاري رضوان الله عليه بعد أن استشهد ..، دفن تحت سور القسطنطينية يوم فتح المسلمون أسوارها في سنة خمس وخمسين هجرية بوصية منه بعد أن جرح، وحين أتاه قائد الجند قائلاً: ما حاجتك أباأيوب؟ فقال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن قدِّمني ما استطعتَ في بلاد العدو، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدفَنُ عند سُور القسطنطينية رجلٌ صالح؛ أرجو أن أكون هُوَ».

وعن الأصمعي، عن أبيه: أنّ أبا أيوب قبر مع سور القسطنطينية، وبني عليه، فلما أصبحوا، قالت الروم: يا معشر العرب، قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نبش، لأضرب بناقوس في بلاد العرب؛ فكانوا إذا قحطوا، كشفوا عن قبره، فأمطروا.

فيما قال الواقدي: مات أبو أيوب سنة اثنتين وخمسين،.. ودفن بأصل حصن القسطنطينية. فلقد بلغني أن الروم يتعاهدون قبره، ويستسقون به.[1]

وسور الصين العظيم، الذي هو سور يمتد على الحدود الشمالية والشمالية

---

١ . أنظر ترجمته في العدد ١٥: ٢٦٢ ٢٧٩ من مجلة ميقات الحج؛ ومختصر تاريخ دمشق٧ : ٣٤٢ ـ٣٤٣ ؛ والواقدي في كتاب المغازي، وغيره.

الغربية للصين، وقد انتهت الأعمال فيه سنة ٢٠٤ ق.م، وبلغ البناء طوله النهائي (٦٧٠٠ كلم) سجل حضوراً في عالم العجائب، ودخل قائمة التراث العالمي التي حددتها اليونسكو عام ١٩٨٧م.

وما سور برلين إلا كونه جداراً خرسانياً طويلاً يفصل شطري برلين الشرقي والغربي والمناطق المحيطة في ألمانيا الشرقية؛ كان الغرض منه الحيلولة دون هجرة القوى العاملة، وتحجيم المرور بين برلين الغربية وألمانيا الشرقية ...، بدأوا ببنائه سنة ١٩٦١م، وتمَّ هدمه عام ١٩٨٩ م.

وهكذا غيرها من المدن العريقة، التي لازالت أجزاء منها تشهد بما كانت عليه من عزّة ومنعة بفضل تلك الحصون والأسوار، مع تباين طرازها وأشكالها وأساليب بنائها وضخامتها وقوتها ..، وكل هذا حسب اختلاف الزمان والمكان وما تقرره الضرورة والحاجة لكل شعب وبلد .. والمتفق عليه أنَّ هذا البناء غدا يشكل ظاهرة عمرانية، وأثراً تأريخيّاً، ومعلماً حضاريّاً مهمّاً في حياة الشعوب والبلدان والدول.

وفي بعض بلاد الجزيرة العربية، كان هذا الشكل من الأبنية قد احتلَّ مكانةً مهمةً جعلت أصحاب الرحلات إلى الحجاز كابن جبير، أبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني المعروف بابن جبير (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م)؛ وابن بطوطة، محمد بن عبدالله، في تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ١٣٧٧ - م)؛ والمقدسي أبوعبدالله محمد بن أحمد بن البناء البشاري المقدسي (ت ٣٨٠هـ الموافق ٩٩٠م) واسم كتاب رحلته: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ والنابلسي، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي الحنفي (ت١١٤٣هـ الموافق ١٧٣٠ م) ورحلته: (الحقيقة و المجاز في رحلة بلاد الشام ومصر

والحجاز) وغيرهم؛ لا يتجاوزن ذكر هذا الشكل من البناء على اختلاف تسمياته، فدونوه في رحلاتهم .. وحظيت المدينة المنورة في مدوناتهم بقسطٍ وافرٍ، فهي تعدُّ أول مدينة إسلامية كان لها النصيب الأكبر من الحماية ببناء الحصون أولاً، فبناء الأسوار حولها ثانياً بعد أن صار التهديد الخارجي لها فعليّاً ، كما يأتينا ، حتى تلاشت الحاجة إليها فيما بعد وبالذات في عصرنا .

ونظراً لغياب الوعي بأهمية التراث العمراني وبقيمة الآثار التاريخية والمحافظة عليها، فقد أزيلت الحصون والأسوار، حالها حال العديد بل الكثير من الآثار العمرانية والإسلامية، ولم يبق منها أي شيء يدل عليها، وعلى هيئتها وقوتها ومدي إتقان بنائها، وهو أمر يؤسف له ...

وهذه أولاً معاني بعض المفردات التي تردنا في الكلام:

* **الحصنُ**: حَصُنَ المكانُ يَحْصُنُ حَصانةً، فهو حَصِينٌ: مَنعَ. وأحصنَ الشيءَ وحَصَّنَه صاحبُه: منعه وصانه. وتَحَصَّنَ: اتخذ له حِصناً ووقايةً. وتَحصَّنَ بالحِصن: احتمى به. الحِصن: الموضع المنيع جمعه حُصُونٌ.

الحَصينُ: المحكم المنيع.

والحِصْنُ: كلُّ موضع حَصِين لا يُوصَل إلى ما في جَوْفِه، والجمع حُصونٌ.

وحِصْنٌ حَصِينٌ: من الحَصانة.

وحَصَّنْت القرية إذا بنيتَ حولَها، وتَحَصَّنَ العَدُوُّ. الحِصْنُ: واحد الحُصونِ. يقال حِصْنٌ حَصِينٌ بيِّن الحَصانَة. فهو محكم ومنيع ..

فأَصلُ الحَصانةِ المنعُ، ولذلك قيل: مَدِينةَ حَصينة ودِرْعٌ حَصِينة وقرى محصّنة..

وفي التنزيل العزيز:

في قصة داود، على نبينا وعليه الصلاة والسلام:

﴿وعَلَّمْناه صنعةَ لَبُوسٍ لكم لتُحْصِنَكم مِنْ بأْسِكم...﴾.(١)

قال الفراء: قُرئ لِيُحْصِنَكم ولِتُحْصِنَكم ولنحصنكم، فمن قرأ ليُحْصِنكم فالتذكير لِلَّبُوس، ومن قرأ لتُحْصِنَكم ذهب إلى الصنعة، وإن شئت جعلته للدرع؛ لأنها هي اللبوسُ وهي مؤنثة، ومعنى ليُحْصِنَكم ليمنعكم ويُحْرِزَكم، ومن قرأ لِنُحْصِنكم، بالنون، فمعنى لنُحْصِنكم نحنُ، الفعلُ لله عزّوجلّ.

﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُم جَميعاً إلاَّ فِي قُرىً محصنةً أو مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾.(٢)

﴿... مَا ظَنَنْتُمْ أنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّهِ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ...﴾.(٣)

* **الصِّيصِيَة**: والجمع صَيَاصٍ، والصَّيَاصي: القُرَى، وقيل: الحُصُونُ، التي يمتنع بها، يقال: جذَّ الله صيصية فلان، أي حصنه الذي يمتنع به فهو صيصية ..

وفي التنزيل العزيز:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ...﴾.(٤)

قال الفراءُ: من حُصُونهم، وقال الزجاج: الصَّيَاصِي كلُّ ما يُمْتَنَعُ به، وهي الحُصُونُ، وقيل: القُصُور؛ لأَنَّه يُتَحَصَّنُ بها.

* **البرج**: بَرَجَ يبرُج بُرُوجاً: ارتفع وظهر. والبُرج: الحصن، والبُرج: البيت يبنى على سور المدينة، وعلى سُور الحِصن .. والجمع: بروج.

وفي التنزيل العزيز:

---

١ . الأنبياء : ٨٠ .
٢ . الحشر : ١٤.
٣ . الحشر : ٢.
٤ . الأحزاب : ٢٦.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.(١)

بروج: حصون وقلاع أو قصور كبيرة. مشيدة: محكمة أو مرتفعة يصعب الوصول إليها.

* **الأُطُمُ**: أَطَّمَ الأُطُمَ: عَلاّه ورفع بناءه.. وقالوا: الهمزة والطاء والميم، يدلّ على الحبس والإحاطة بالشيء، يقال للحصْنِ الأُطُم، وجمعُهُ آطامٌ؛

قال امرؤ القيس:

وَتيْماءَ لم يَتْرُكْ بِـها جِـذعَ نَخـلةٍ وَلاَ أُطُـمـاً إلاّ مَـشِـيداً بِـجَـنْدلِ

فالأُطم الأُطُمُ: الحصن. والبيت المرتفع، ج: آطام، وأُطُوم.

* **السور**: تسَوَّر الحائطَ أو السورَ وغيرهما: علاه وتسلَّقه.

وفي التنزيل العزيز:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾.(٢)

﴿... فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ...﴾.(٣)

السور: كل ما يحيط بشيء من بناء أو غيره؛ السورُ: حائط المدينة، وجمعه أَسْوارٌ وسيرانٌ.(٤)

* * *

إنّ بناء الحصون والآطام... كانت وسائل معروفةً في تلك الأزمان، التي مرّت على منطقة الجزيرة العربية، وكان اليهود مولعين بمثل هكذا أبنية،

---

١ . النساء : ٧٨.

٢ . ص : ٢١.

٣ . الحديد : ١٣.

٤ . أنظر في كل هذا: لسان العرب؛ والمعجم الوسيط:٢١، ١٨٠،٤٦ ؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية؛ مقاييس اللغة؛ مفردات القرآن، للراغب وللحمصي.

ويعدونها من الأمور الأساسية، التي تقوم عليها مشاريعهم على الأصعدة كافة، وحمايتها والدفاع عنها..

والظاهر أنّ العرب سكنة هذه البلاد تعلّموا ذلك من اليهود، الذين سبقوهم حين أقاموا في يثرب تجمعات مغلقة، وبنوا الحصون والآطام، وجمعوا ثروات كبيرة، راحوا يحافظون عليها عبر تلك الوسائل، التي جعلوها ملاجئ لهم، ومواقع دفاعية.. وبما أنهم اهتموا بزراعة النخل، واتسعت زراعتهم، كثرت آطامهم، وانتشرت في خلال هذه الأراضي الزراعية المتداخلة فيما بينها:

خيبر:

وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام؛ فيها مزارع ونخل كثير.. وهي محصنةً تحصيناً قوياً فيها سبعة حصون، أو ثمانية حصون انفصل بعضها عن بعض، حتى أنّ ابن كثير عنون فصلاً سماه: فصل فتح رسول الله عليه السلام للحصون؛ وهو يتحدث عن معركة خيبر.

وأسماء حصونها:

حصن ناعم: ومما جاء في ذلك الفصل: قال ابن إسحاق: وتدَّنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصناً حصناً، وكان أول حصونهم فتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه رحى منه فقتلته...

فيما ذُكر أنّ من استشهد من المسلمين يوم قريظة، خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحى فقتلته.

وجاء في سيرة ابن هشام أنّ خلاّد بن سويد.. شهد بدراً وأحداً والخندق،

وقتل يوم بني قريظة شهيداً، طُرحت عليه رحى من أُطم من آطامها، فشدخته شدخاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ فيما يذكرون : «إنَّ له لأجر شهيدين».[١]

ثم القموص حصن بني أبي الحقيق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة؛ وحتى لفظ خيبر فهو بلسان اليهود: الحصن، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر، إضافةً إلى أنهم بنوا الآطام، وهي حصون صغيرة تتسع لعائلة أو بضع عائلات وتحميهم من الغارات والهجمات، فهي مواقع دفاعية اعتنوا بها أيما عناية...

وفَدَك:

المنسوبة إلى فدك بن حام بن نوح عليه السلام وهو مؤسسها... أو فدك أحد إخوان سلمى بن العمالقة، وهي ضمن المدن التي احتلها أحد ملوك بابل عام ٥٦٦ ق.م ... وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة، وفيها عين فوارة ونخيل كثير، أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً، بعد أن نزلها و فتح حصونها، وحصنها يقال له: الشمروخ بقرب خيبر...

وقد سميت فدك بالحائط نسبة لسورها المسمى بالحائط، ويعدُّ سور الحائط هو الأكبر والأضخم في الجزيرة، الذي يبلغ طوله حوالي ٧ كم تقريباً، وهو على شكل دائري، يحيط بجوانبها ونواحيها وله مداخل، وركب على السور بوابتان إحداهما في الجنوب، وتسمى بوابة النويبية، والثانية في الشمال، وتسمى باب الحبس، وقد زود السور بالقلاع، وهي قلعة باب الحبس، وقلعة جريدا، وقلعة الغار، وقلعة أبوشجرة، وقلعة الحسكانية، والفديحة، والغابة، والبديعة،

١ . أنظرالجزء الرابع من البداية والنهاية (فصل فتح رسول الله عليه السلام للحصون) والسيرة النبوية، لابن هشام٢: ٤٥٩، خلاد بن سويد...

والزبرة ... وتسمى فدك أيضاً مدينة الحصون والأسوار...[١]

وإنما ذكرت كلَّ هذا التفصيل؛ لنعرف أهمية مثل هذا النوع من البناء، وقِدم اللجوء إليه؛ أسوار عظيمة، وقلاع عملاقة، وحصون..، وجميعاً موغلة في التاريخ، غدت فيما بعد آثاراً تشير إلى حضارة باكرة، شهدتها هذه البقاع والبلدان والدول والحضارات منذ القدم.

مكة المكرمة:

إنَّ ما أميل إليه أنّ مكة المكرمة، وكما يظهر من دراسة واقعها الديني والجغرافي الطبيعي، الذي جعلها مكتفيةً به، ليست بحاجة إلى وجود حصون أو آطام فيها للدفاع عنها؛ فهي لم تكن ذات حصون وبروج ، ولا سور أو أسوار تقيها من احتمال غزو الأعراب أو غزو عدو لها، فمنذ نشأتها ظلّت حرماً آمناً في حكم الله تعالى، راح يحترمه الجميع، وهي نعمة عظيمة ذكّر الله عزَّ وجلَّ أهل مكة بها في الآيتين:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ...﴾.[٢]

أي يقتل بعضهم بعضاً فيما حولهم وهم آمنون في الحرم ...[٣]

والآية: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى معَكَ نُتخَطَّفْ من أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حرَماً آمِناً﴾.[٤]

---

١ . أنظر في هذا كله تاج العروس، للزبيدي٨ :١٨٧؛ كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، للسمهودي١: ١٥٩ـ١٦٥؛ معجم البلدان، لياقوت الحموي٢ : ٤٠٩ و ٥ : ١٦٠ و ٤ : ٢٣٨؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي٢: ١١٩ـ١٢١؛ الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري: ٤٣٧.

٢ . العنكبوت : ٦٧.

٣ . مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية.

٤ . القصص :٥٧.

وقد كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن، وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بعُد منها يغزو بعضهم بعضاً، ويتغاورون ويتناهبون، وأهل مكة آمنون، لا يعدو عليهم أحد مع قلتهم، فذكرهم الله هذه النعمة عليهم.[١]

كما أنَّ البيت الحرام كان في وادٍ، وكان موقعاً رعته الطبيعة بعنايتها، تحيطه الجبال والمرتفعات، ويغطيه الشجر الذي أنبتته كثرة السيول، وقد عرفت مكة بسيولها العظيمة.. وليس فيها سكن ثابت؛ بل كان سكن من يأوي إلى البيت الحرام بيوت الخيام التي تشاد حوله. فيما أهل مكة يسكنون المرتفعات التي تحيط بالوادي، وتشرف على البيت، فإذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو، اعتصموا بقمم تلك المرتفعات المشرفة على الوادي، وما يحيط به من وديان صغيرة وطرق ودروب .. وقاوموا عدوهم والغزاة، وبذلك يصعب على الطامعين فيهم الوصول إليهم، ويضطر أعداؤهم عندئذ إلى التراجع عنهم، فحمتهم الطبيعة بنفسها، ورعتهم برؤوس جبالها، وظلّت هذه الحالة قائمةً بينهم حتى بعد أن جاء «قصي» ببعض من كان يسكن الظواهر لنزول الوادي، وأسكنهم مع أهل الوادي في بيوت ثابتة مبنية، بقي من فضّل السكن في ظواهر مكة، أي على المرتفعات، وصار يقوم بمهمة حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات، وهم الذين عرفوا بقريش الظواهر. فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة إلى اتخاذ الآطام والحصون، فضلاً عن بناء سور يحميهم من الغزو، ولا سيما ومكة حرم آمن، وهي في حماية البيت ورعايته.

إضافةً إلى ما قام به قصي من توكيده مبادئ وقيماً، كإقراء الضيف، ورعاية الغريب، والعفو والتسامح، والابتعاد عن القتال، وحلّ المشكلات حلاً بالتي هي أحسن، كما نظّم أمور الحج، وجعل الحجاج يفدون إلى مكة للحج

١ . تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: الآية.

وللاتجار..؛ ثمَّ أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي أرست دعائم الأمن والسلم الأهلي بينهم، وبالتالي أفادت البلد الآمن، وأمنت له رزقه يأتيه رغداً .. وحتى أنَّ عبد المطلب جدَّ النبيﷺ عندما انصرف من لقائه المعروف بإبرهة الحبشي، القادم في حملته على مكة، جاء إلى قريش، فأخبرهم بما يريده هذا الغازي ويهدف إليه، وأنهم لا قِبل لهم به، وراح يستحثهم بل ويأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز بالجبال والشعاب؛ تخوُّفاً عليهم معرّة الجيش (شدته) وقد كانوا أكثر من قريش عدداً وعدَّةً .. يقول الطبري: .. وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها ...[1]

وهذا لعلّه أفضل دليل على أنهم استغنوا بذلك كله عن بناء حصون وآطام وأسوار، بل ولم يلتفتوا إليها ويهتموا بها، إذ لا حاجة لهم بها..

ومع كل هذا الكلام وجدت محمد طاهر الكردي المكي في تاريخه القويم، وبعد قوله: ما كنا نظن أنه كان لمكة سور قبل أن نطلع على كتب التاريخ، والسبب في تسويرها هو الاعتداءات المتكررة من الحكام في قديم الزمن على بعضهم البعض، فجعلوا لمكة سوراً في جهاتها؛ ليتحصن من كان في داخلها، ثم لم يزل السور يندثر شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق له أثر الآن مطلقاً.. يذكر أنّ الغازي في تاريخه يقول: ... وكانت مكة في قديم الزمان مسورة... كما يذكر أنّ الفاسي في أول كتابه شفاء الغرام يقول: إنّ مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة، تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلاّ الله عزَّوجلَّ في بطن وادٍ مقدس، والجبال محدقة بها كالسور لها (وهو ما أكدناه أعلاه) ثمَّ يذكر أنّ لها ثلاثة أسوار:

سور في أعلاها، ويعرف بسور باب المعلاة، وفيه بابان أحدهما لا باب له،

---

١ . تاريخ الطبري ١: ٤٤٢ ؛ وغيره من مصادر التاريخ والأخبار.

ويكون في الغالب مسدوداً، وسوران في أسفلها، أحدهما يعرف بسور باب الشبيكة، وفيه باب كبير، وخوخة صغيرة لا باب لها، والسور الآخر يعرف بسور باب الماجن، ويعرف أيضاً بسور باب اليمن؛ لأنه على طريق البرِّ إلى اليمن...

وهناك إشارة أيضاً إلى أنّ لمدينة جدّة سوراً هدمته الحكومة؛ لعدم الاحتياج إليه...[١]

هذا ما يخصُّ مكة وجدّة، أما ما يتعلق بمدينة الطائف، فسيأتي الحديث عنها.

المدينة المنورة:

وبما أنّ حديثنا عن المدينة المنورة، التي قد يكون تأسيسها قبل الإسلام بألف وخمسمائة سنة، فإنَّ أهلها راحوا يعتمدون على الحصون الكبيرة، والآطام، وهي حصون صغيرة بدل الأسوار؛ لحماية أنفسهم وما يملكون؛ ولم يقيموا فيها سوراً مع عظيم سعتها واتصال قراها.

وخير دليل هو أنّ القرآن الكريم بيّن أنّ اليهود بقبائلهم (بنو قريظة،

النضير، بنو القينقاع) وهم منذ القدم يسكنون هذه البلدة، كانوا يستعينون

١ . هذا شيءٌ مما ذكره صاحب كتاب التاريخ القويم لمكة، تحت عنوان: أسوار مكة ٢ : ٥٩.

لحماية أنفسهم وما يملكونه بالحصون والآطام:

﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾.[١]

أي ممتنعة حصينة، أي لا يبرزون لحربكم، وإنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى، أو يرمونكم من وراء الجدران بالنبل والحجر، وهم بالتالي لا يجتمعون على قتالكم معاشر المؤمنين اجتماع الجيوش، أي لا يهاجمونكم، ولكن يقاتلون قتال دفاع، وهم يقبعون في قُراهم خائفين متَترِّسِينَ..

يقول ابن عاشور: لأنّ شدة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدة التحصّن لقتالهم إياهم، ... ثم يواصل قائلاً: فلا يهاجمونكم، وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم، ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة، أو يقاتلونكم من وراء جُدر، والجُدُر بضمتين جمع جدار؛ أي في الحصون، والمعاقل، ومن وراء الأسوار، وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة، إذ: «ما حورب قوم في عُقر دارهم إلا ذلُّوا» كما قال عَليّ رضي الله عنه..[٢]

﴿... مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا...﴾.[٣]

«ما ظننتم أن يخرجوا» أي لم تظنوا أيها المؤمنون أنهم يخرجون من ديارهم لشدتهم وشوكتهم؛ «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» أي وظن بنو النضير أنّ حصونهم لوثاقتها، تمنعهم من سلطان الله، وإنزال العذاب بهم على يد رسول الله ﷺ حيث حصنوها، وهيّأوا آلات الحرب فيها...[٤]

---

١ . الحشر : ١٤.

٢ . تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور.

٣ . الحشر : ٢.

٤ . تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ...﴾.[١]

أي من حصونهم، فالصياصي: الحصون التي يمتنع بها واحدتها صيصية، يقال: جذَّ الله صيصية فلان أي حصنه الذي يمتنع به، وكل ما امتنع به فهو صيصية، ومنه يقال لقرون البقر والظباء: صياصي، ويقال أيضاً لشوكة الديك: صيصية، قال:

«كوقع الصياصي في النسيج الممدَّدِ»

هو عجز بيت لدريد بن صمة في قصيدة له في رثاء أخية وصدره:

نظرت إليه والرماح تنوشه.

وفي لسان العرب: فجئت إليه والرماح ... وتنوشه: أي تتنازله من قريب؛ شبه وقوع الرماح على أخيه بوقوع شوك النساج في نسيجه.[٢]

ولم يشر القرآن المجيد ولو مرةً واحدةً إلى أنهم استخدموا الأسوار، وكما ذكرنا فقد اكتفى بالحديث عن الحصون فيها، ومع هذا، فلا يُنفي أنّ أهل المدينة فيما بعد استخدموا الأسوار في مرحلة من مراحل حياتهم، وهو ما سنجد سببه فيما ذُكر من أسباب لاختيار كل من الأسوار أو الحصون وفيها نواصل الكلام عن المدينة المنورة فقد أرجع بعضهم ذلك إلى:

أولاً: طبيعة البلد، فإن كان زراعيّاً بنوا فيه الحصون؛ وإن كان غير ذلك بنوا حوله الأسوار؛ والمدينة عرفت بأنها قرى زراعية متداخلة..

ثانياً: فيما أرجع آخرون ذلك إلى طبيعة التكوين السكاني، فإن كان متجانساً، اختاروا السور، كما هو الحال في الطائف، ويعدّ سور الطائف وهو سور كبير من أشهر أسوارهم في الحجاز، وتعدُّ ميزة لها حين اتخذت الأسوار، فالطائف

١ . الأحزاب : ٢٦.

٢ . مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، التفسير واللغة، والهامش.

كانت تضمُّ سكاناً غير مختلفين، بل كانوا متجانسيين متحديين، فلا خوف بينهم، بل كل خوفهم من عدوهم الخارجي الغزاة؛ لهذا بنوا سوراً يحميهم من الخطر إن قدم عليهم من خارج مدينتهم، إلا أنهم وبعد أن حدثت حروب بينهم، أقبلوا على بناء الحصون والآطام وهي حصون صغيرة؛ كما ذكر الأزرقي من إقبال أهل الطائف على بناء الحصون والآطام في الطائف بعد ذلك، نتيجة للحروب الداخلية التي نشبت فيما بينهم.

ولضخامة حصون الطائف ولعظمة أسوارها، كان مما يؤثر لسلمان الفارسي رضوان الله تعالى عليه ، أنه كان قد أشار على المسلمين بعد أن وقفوا عاجزين أمام مناعة أسوار الطائف وحصونها باستعمال المنجنيق على حصنهم قائلاً: يا رسول الله، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون، وتُنصبُ علينا؛ فنصيب من عدونا، ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن المنجنيق طال الثواء.[٣] فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقاً بيده، فنصبه على حصن الطائف، وقذفوا به الصخور إلى ما وراء الحصن فلم تعمل فيه...[٤]

وإن كان التكوين السكاني مختلفاً ومتداخلاً كما هو حال يثرب، كان الحصن مناسباً لهم، فقد كان سكان يثرب سواء العرب أو اليهود يشكلون قبائل مختلفة، وما أن تنشب الحروب الطاحنة بينهم، وهي عديدة، بدأت بحرب سمير وانتهت بحرب بعاث بين الأوس والخزرج، وبين الحربين وقعت عشرات الحروب، وقد دامت قرابة مائة وعشرين عاماً، ولم تنته حتى جاء الإسلام فأطفأها.. كان يلتجئ كل قوم إلى حصون وآطام، لحماية أنفسهم

---

٣ . الثواء: الإقامة.

٤ . أنظر شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥ ؛ والمغازي، للواقدي : ٩٢٧.

وممتلكاتهم، وكلما اتسعت مزارعهم، وتجمعاتهم المغلقة عليهم، كثرت حصونهم وآطامهم أيضاً، حتى عرفت بحصونها الكثيرة التي قد تكون بلغت مائة وتسعين حصناً..

ثالثاً: وقد يكون السبب هو تبادل الأدوار بين الأسوار والحصون في المدينة الواحدة، تبعاً للأحوال الأمنية، والأخطار التي تواجهها، سواء أكانت خارجية أو داخلية، وبحسب هذه الأمور يختار أهل البلد لأنفسهم ما يرونه مناسباً من سور أو حصن، وقد يتمُّ اختيار الاثنين معاً.

وأظن أنّ هذه الأسباب متوفرة في المدينة، فهي بلد زراعي، وسكانه مختلفون، متقاربون في سكناهم، وحين اختلفت الأخطار من أن تكون داخلية، إلى خارجية، لاذوا بالأسوار دفاعاً عن مدينتهم...

فيثرب (المدينة المنورة) كانت على هيئة مجموعة من الأكواخ، والمنازل البدائية، مبعثرة دون نظام، تكتنفها المزارع والبساتين؛ نظراً لوفرة المياه فيها، ولذلك انتشر ما يسمى بالآطام أيضاً، وهي نوع من الحصون، ولكنها صغيرة، وقد كثرت تلك الآطام حتى عرفت المدينة بذات الآطام، يلجأ إليها السكان عند الخطر، وكان أسلوب حمايتها آن ذلك باستخدام الآطام، التي كانت تحمي أحياء القبائل المتفرقة، فلم تكن يثرب قبل الهجرة النبوية محاطة بسور يجمع تلك الأبنية ويحيطها، فقد كانت الحروب داخلها لا تأتيها من خارجها، بين قبائلها كما ذكرنا، فكانوا بحاجة إلى الحصون، وأما الأسوار، فإنها لا تؤدي وظيفة الحصون؛ لأنّ هذه الحروب هي داخل مدينتهم.

وأما إقبال أهل المدينة على بناء السور عام ٢٦٣هـ؛ كان بسبب ما تعرضت له من هجمات خارجية.. وقبل هذه السنة المذكورة، فإنّ المدينة عاشت قروناً طويلة في جاهليتها وفي إسلامها لأكثر من قرنين، حيث استمر الحال في عهد

رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فالعهد الأموي، بلا أسوار؛ بل ولم تعرفها في حياتها حتى أتي العهد العباسي الذي شهد أول سور للمدينة في السنة المذكورة.

يقول السمهودي عن المدينة المنورة: فلم يكن لها في الزمن القديم سور، ومن تأمل ما ذكرناه في الأصل من منازل القبائل من المهاجرين مع منازل قبائل الأنصار، علم عظيم سعتها، واتصال قراها بعضها البعض، ولذا لم تقم الجمعة في قراها، مع كثرتهم بها واستيطانهم، وأنّ قباء مدينة عظيمة متصلة بالمدينة المنورة...[1]

السور الأول:

إذن فقد كان سبب إقبالهم على بناء السور حول المدينة، وبحسب ما اتفقت عليه معظم المصادر التاريخية، هو حمايتها من هجمات الأعراب عليها، فقد تعرضت المدينة في سنة ٢٣٠ هجرية في عهد الخليفة الواثق للهجوم من قبل قبيلة بني هلال تسبب في خراب العديد من مبانيها.

ففي بداية عهد الواثق عام (٢٢٧ هـ)، عاث بعض قبائل الأعراب من البدو فساداً في بلاد الحجاز، فنهبوا الأسواق، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس، وقطّعوا الطرق، فقد ذكر الطبري أن بني سُليم كانت تطاول على الناس حول المدينة بالشرِّ.. فوجه عامل المدينة حماد بن جرير الطبري الذي كان قد وجهه الواثق مسلحةً للمدينة لئلا يتطرقها الأعراب.. فقاتلهم بمن معه من جند وبمن تطوع معه من قريش والأنصار ومواليهم وغيرهم من أهل المدينة.. فحمل على بني سُليم بموضع يقال له الرّوَيثة على ثلاث مراحل... وبعد أن

١ . وفاء الوفا، للسمهودي: المدينة.

جاء بني سليم المدد، قتل حماد وعامة أصحابه.. فاستباحت بنو سليم القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة...، ثم أرسل إليهم الواثق جيشاً آخر في شهر شعبان سنة ٢٣٠هـ بقيادة بُغا الكبير أبا موسى التركيّ، وهو أحد قواده الأتراك، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأسر مثلهم، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشّر والفساد، وحبسهم بالمدينة،... حاول الذين اعتقلهم الخروج من الحبس، وثاروا في المدينة، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم..[١]

وبعد ثلاث وثلاثين سنة أي في سنة ٢٦٣ هجرية بُني أول سور حول المدينة، وكان من اللبن من قبل أمير المدينة يومذاك، إسحاق بن محمد الجعدي.

فعن الروض المعطار:.. وفي سنة ثلاث وستين ومائتين، بنى إسحاق بن محمد الجعدي سور المدينة المعروف عليها اليوم، ولها أربعة أبواب:

باب في المشرق وراء دار عثمان بن عفان، يخرج منه إلى بقيع الغرقد؛ وهناك مدافن أكثر أهلها؛ وهناك قبر إبراهيم ابن النبيﷺ وقبر الحسن بن عليعليهما السلام.

وباب في المغرب يخرج منه إلى العقيق وإلى قبا، وبين يدي هذا الباب جدول مياه جارية، وداخل هذا الباب في حوزة السور موضع المصلَّى، الذي كانﷺ يصلِّي فيه يوم العيد.

وباب بين الشمال إلى المغرب.

وباب آخر يخرج منه إلى قبور الشهداء بأُحُد. وحِمى المدينة اثنا عشر ميلاً.

ثمَّ ذكر بعد ذلك أيضاً: أنّ المدينة في مستو من الأرض سبخة، كان عليها سور قديم، وبخارجها خندق محفور، وهي الآن (يعني في زمن الإدريسي، وقد أدخل ناسخ نزهة المشتاق في المتن قوله: وفي تاريخ نسخ هذا الكتاب،

١ . أنظر تاريخ الطبري ٥ : ٢٧٨، أحداث سنة ٢٣٠ هجرية، بتلخيص.

جدد السلطان ابن عثمان السور المذكور، فصار أحصن مما قبله وأوفق بناءً) عليها سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة الغزي، ونقل إليها جملة من الناس...

ويذكر قبل هذا أنّ اليهود اتخذوا الآطام حين سكنوا في يثرب؛ فنزل جمهورهم بمكان يقال له: يثرب؛ مجتمع السيول وما حول ذلك، واتخذوا الآطام والمنازل.[١]

إذن ووفقاً لما جاء في الروض أنَّ في المدينة سوراً قديماً، وأنّ هناك سوراً آخر غير ذلك السور القديم، وصفه بأنه سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة... وهو الذي كما في الهامش جدده السلطان ابن عثمان من سلاطين الدولة العثمانية، والمتوفى٧٦١ هجرية. وبالتالي فهو تحدث عن وجود سورين في المدينة..

وفي قول محكيٍّ: وفي هذه السنة نفسها سنة ثلاث وستين ومئتين، أغارت بنو كلاب على المدينة، فقتلوا رجالاً، وسبوا نساءً وأطفالاً، فجاء صريخهم إلى بغداد.... على أنّ .... البزاز، كان رجلاً صالحاً عدلاً جمع مالاً من التجار للنفقة على تحصينها فوجه المال إليهم... وأخرج السور... مع ولد عقيل بن أبي طالب.. وهو ما نسبه أحمد محمد شعبان في مقالة له حول أسوار المدينة المنورة، إلى العلامة حمد الجاسر عن كتاب الأوراق، لأبي بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي(المتوفى ٣٣٥هـ)، ثم يردف ذلك بقوله: ولعل الأموال التي جمعت أرسلت إلى المدينة وقتئذٍ، فقام إسحاق بن محمد الجعدي ببناء السور حولها.

---

١ . الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي لمحمد بن عبد المنعم الحميري، حقّقه د. إحسان عباس: ٤٠١-٤٠٢، وهامش الصفحة: ٤٠٢.

ولكني وجدت ما قد يعدُّ توكيداً لما نسب إلى الأوراق، وهو ما ذكره المحقق لرحلة بيرتون إلى المدينة، وأنقله بالنصّ مع مصادره:

ذكر البكري (المتوفى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) أنّ أول من بنى سوراً حول المدينة؛ إسحاق بن محمد الجعدي، بني هذا السور عام ٢٦٣هـ؛ وذكر أنّ له أربعة أبواب: باب في الشرق وراء دار عثمان بن عفان، وباب في المغرب يخرج منه إلى بقيع الغرقد، ويخرج منه إلى العقيق، وباب من الشمال والمغرب يُفضي إلى مسجد الفتح، وباب آخر يخرج منه إلى قبور شهداء أحد.[١]

ويبدو أن هذا النص نقله البكري من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي فقد قال: إنه في سنة ٢٦٣هـ أغارت بنو كلاب على مدينة رسول الله ﷺ فقتلوا رجالاً، وسبوا نساءً وصبياناً، فجاء صريخهم إلى بغداد، فتولى البزاز وكان صالحاً عدلاً تجميع الأموال لتحصين المدينة، فبعث المال إلى المدينة، وبني السور.[٢]

وينفرد إبراهيم رفعت باشا بالقول: إنّ أول من قام بعمل السور حول المدينة، هو محمد بن إسحاق الجعدي عام ٢٣٦هـ، ولعل هذا تحريف في الطباعة.[٣]

---

١ . الجزيري، درر الفوائد:٦٤٠. وعزاه لكتابه المسالك والممالك، وبعد مراجعتي للجزء المحقق من كتاب المسالك الجزء الخاص بجزيرة العرب لم أجد هذا النص ويظهر أنّ الحميري نقل هذا النص عن البكري، دون أن يصرّح بذلك (الروض المعطار ٤٠١ ٤٠٢، تحقيق إحسان عباس، مطبعة لبنان، بيروت ط٢/ ١٩٨٤م).

٢ . (أنظر: تعليق حمد الجاسر على كتاب المغانم المطابة، للفيروزآبادي:١٩٠، دار اليمامة، الرياض، ط١/ ١٣٨٩هـ).

٣ . (مرآة الحرمين١: ٤١٠، دارالمعرفة، بيروت)؛ (عبدالقدوس الأنصاري، آثار المدينة:١٦٩، المكتبة العلمية،ذكر المدينة المنورة، ط٤/ ١٤٠٦هـ)؛ علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة: ٣٧ ٣٨، شركة المدينة للطباعة، جدة، ط٢/ ١٤٠٥هـ).

أنظر في هذا رحلة بيرتون، وصورة المدينة في رحلته عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م، وهو مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم بريطاني (ولد في ١٩ مارس١٨٢١ـ توفي في٢٠ أكتوبر١٨٩٠م).

(القسم الثاني) د/ محمد بن عبدالهادي الشيباني؛ الجامعة الإسلامية قسم التاريخ: هامش الصفحة:٨٩.

وقد نقلته بالنص، ومن المفيد مراجعة ما قبل هذه الصفحة وما بعدها، فهي تتضمن أيضاً كلاماً مفصلاً عن موضوع الأسوار، وكذا الأبواب، تركتُه والكلام حوله خوف الإطالة...

هذا، وأنّ الذي جاء في كتاب المغانم المطابة، وتحت عنوان السُّور:

سور المدينة الشريفة، بناه أولاً عضد الدولة ابن بويه بعد الستين وثلاث مائة في خلافة الطائع لله ابن المطيع لله، ثم تهدم على طول الزمان، وخرب لخراب المدينة، ولم يبق إلا آثاره ورسمه، حتى جدد الجواد جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصبهاني للمدينة سوراً محكماً حول مسجد رسول الله ﷺ وذلك على رأس الأربعين وخمسمائة...

وهنا يقول المحقق لكتاب المغانم المطابة، حمد الجاسر، حول ما ذكره المصنف من أنّ أول من بنى سور المدينة الشريفة عضد الدولة في سنة بعد الستين وثلاث مائة..: ليس كذلك، فقد رأيت بتاريخ أبي بكر الصولي بالأوراق، وهو في أجزاء، أنّ في سنة ثلاث وستين ومائتين أغارت بنو كلاب... فدل على أنّ المدينة سورت قبل عضد الدولة...[1]

---

١ . كتاب المغانم المطابة في معالم المرطابة، تأليف مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي٧٢٩ ٧١٨ هـ؛ ١٣٢٩ـ١٤١٥م، تحقيق، حمد الجاسر:١٩٠، وفيها الأصل والهامش.

إلاّ أنّ المحقق الجاسر لم يذكر في أي جزء أو صفحة من كتاب الأوراق رأى ذلك، ولو ذكر ليسّر عليَّ ذلك، فإني لم أجد هذا فيما تيسر لي من الكتاب المذكور في الانترنيت، وهو كتاب يكاد يكون إن لم يكن كلّه، فجلّه كتاب قصائد شعرية.. مع أخبار الخليفتين الراضي بالله (٣٢٢ـ ٣٢٩هـ) والمتقي لله (٣٢٩ـ ٣٣٣ هـ) فيما بني السور الأول سنة ٢٣٦ أو ٢٦١ أو ٢٦٣ هـ على كلام بينهم ذكرناه.

ونقل السمهودي في الخلاصة عن المجد عن المطيري عن ابن خلكان: أنّ أول من بنى على المدينة المنورة سوراً، عضد الدولة ابن بويه بعد الستين وثلاثمائة (٣٦٠ هـ) في خلافة الطائع لله بن المطيع لله، ثم تهدم على طول الزمن وتخرب بخراب المدينة المنورة ولم يبق إلا آثاره ورسمه، وقد رأيت آثاره قبلي جبل سلع وظاهر، وما رأيت من آثاره أنه كان متصلاً بشفير وادي بطحان من المغرب.

ثم قال العلامة السمهودي عن هذا: وهو مخالف لما في الروض المعطار في أخبار الأقطار، من أنّ إسحاق بن محمد الجعدي بنى سور المدينة المعروف عليها اليوم أي في زمنه سنة ثلاث وستين ومائتين..، ولعل المنسوب لابن بويه إنما هو تجديده أو سور غيره..

من هذا يتضح أنّ أمير المدينة يومذاك إسحاق بن محمد، كان أول من أنشأ سوراً لها، ووقع هذا في سنة مئتين وثلاث وستين هجرية.

وبقي هذا السور، الذي كان مبنياً بالطوب واللبن، يؤدي دوره في حماية المدينة من هجمات الأعراب لأكثر من مائة عام، حتى تهدم معظم أجزائه، ولم يعد قادراً على أداء المهمة التي بني من أجلها، فقام عضد الدولة ابن بويه في خلافة الطائع لله بن المطيع لله في الفترة من ٣٦٧ـ٣٧٢ هـ، بإعادة إعماره باللبن الترابي.

السور الثاني:

وظلّ ذلك السور يحمي المدينة، حتى تهدم وبقيت آثاره، فتعرضت المدينة لهجمات أعراب البادية، فأعاد بناءه جمال الدين محمد بن أبي منصور الأصفهاني، سنة ٥٤٠ هجرية؛ وبذلك أعاد للمدينة الأمن والاستقرار.

وعلى قول: إنَّ السور الذي كان داخل المدينة، فإنما أحدثه جمال الدين بن أبي منصور، وكان وزيراً لوالد الملك العادل يعني زنكي، ثم استوزره بعد زنكي غازي بن زنكي، نعني أخا الملك العادل؛ وقد يكون موقع هذا السور حول المسجد الشريف، وقد وصف بأنه سور محكم.

وإن صحَّ هذا فإنَّ المدة متقاربة في عمل السورين.

وفي كتاب شهاب الدين بن أبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥ هجرية)، قال ابن الأثير: رأيت بالمدينة المنورة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين يعني الجواد فسألناه، فقال: يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعو له؛ لأننا كنا في ضرّ وضيق مع الأعراب، لا يتركون لأحدنا ما يواريه، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فكيف لا ندعو له؟..

وكان الخطيب في المدينة المنورة يقول في خطبته: «أللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور، محمد بن علي بن أبي منصور».

وبعد ثمانية عشر عاماً، أي في عام ٥٥٨ هجرية، حين زار المدينة نور الدين محمود بن زنكي التركي، طلب منه عدد من الذين كانوا يسكنون خارج السور أن يبني عليهم سوراً يحفظهم، فأمر بتكميل سور المدينة النبوية.[١]

أو أنه زاد فيه، أو أمر ببناء سور أحاط بالسور القديم، وبالتجمعات

---

١ . سير أعلام النبلاء، للذهبي، الجزء العشرون، الطبقة الثلاثون.

السكانية التي أقيمت خارجه، على اختلاف الأخبار، مع أجراء إصلاحات للسور السابق؛ وهو الأرجح، فصار في المدينة سوران: سور داخلي يحيطه سور خارجي.

يدل على هذا كلّه العبارة التي كتبت على باب الحديد داخل بوابة البقيع، وهو من أبواب السور الأول، ونصّها: هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكي بن آقسنقر غفرالله له، سنة ٥٥٨ هـ. ويدل على أنّ للمدينة سورين، ما ذكره ابن جبير في رحلته للمدينة بعد اثنتين وعشرين سنة، مما عمله ابن زنكي أي في سنة٥٨٠ هـ: أنّ للمدينة سورين وأربعة أبواب، في كل سور باب يقابله آخر، أطلق على إحداها باب الحديد نظراً لأنه كان كذلك، وباب الشريعة، وباب القبلة، يقول: وهو مغلق، وباب البقيع.

ويبدو أنه اختار هذه الأسماء للأبواب إلا باب البقيع الذي بقي محتفظاً باسمه؛ لقربه من بقيع الغرقد.

يقول السمهودي في كتابه ذروة الوفاء: إنّ السلطان نور الدين لما ركب متوجهاً إلى الشام، وكان الناس قد كثروا بالمدينة المنورة خارج السور الذي بناه الجواد الأصفهاني حول المسجد، فصاح بالسلطان من كان نازلاً خارج السور، وطلبوا منه أن يبني عليهم سوراً يحفظ أبناءهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني عام ٥٥٨ هـ وكتب اسمه على باب البقيع، فهو باق إلى يومنا هذا، قال السيد الإمام السمهودي: وقد شاهدت ما ذكره على باب البقيع، وفيه ذكـر التاريخ المذكور؛ ونصّه أعلاه.

ومرّت على هذا السور تجديدات عديدة في حقب تاريخية.. وما يلفت النظر في هذه التجديدات أن حديث المؤرخين بعد ابن جبير انصبَّ على ذكر سور واحد، فالسمهودي (ت٩١١ هـ) تعرض فقط إلى السورالأول حيث يقول:

ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب، غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب السر، وهو عظيم كله من الحديد، وأما الأبواب الأربعة:

فأحدها: الباب الذي غربي المدينة في جهة المصلى عند منزلة الحاج المصري، ويعرف بدرب المصلى ودرب سويقة، وذرع ما بينه وبين عتبة السلام ٦٤٥ ذراعاً، وكان عليه باب متقن أحرقه صبيان الأمير ضيغم سنة عزله، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذي عمره الأمير ضيغم وجعله عليه، ثم عمل به باب متقن كالأول في عمارة المسجد المتجددة بعد الحريق الثاني.

ثانيها: الباب الذي في جهة المغرب أيضاً، عند رحبة حصن أمير المدينة، يعرف بالدرب الصغير.

ثالثها: الباب المعروف بالدرب الكبير، والدرب الشامي.

رابعها: الباب المعروف بدرب البقيع في شرقي المدينة، ويعرف بدرب الجمعة، وعليه باب متقن مغشى بصفائح الحديد، والظاهر أنه باق من زمن نور الدين الشهيد لما قدمناه من الكتابة عليه، وذرع ما بينه وبين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل ٤٣٣ ذراعاً؛ وفي قبلة سور المدينة موضع باب مسدود اليوم وكان يعرف بدرب السوارقية.[١]

السور الثالث:

وأيضاً وبعد زمن، راحت أعالي ذلك السور تتهدم، فيما غدا ما تبقى منه مشرفاً على الخراب أو السقوط، مما جعل الأعراب يلحقون بأهل المدينة أذًى متواصلاً، ويسببون أضراراً في ممتلكاتهم.

في عهد السلطان سليمان القانوني (ت ١٥٦٦م) وبعد أن امتدت سلطة

---

١ . وفاء الوفا، للسمهودي.

الدولة العثمانية إلى الحجاز، واهتم سلاطينها بمكة والمدينة، وحظيت المباني بشكل عام، والمسجد النبوي بشكل خاص، بالعناية والرعاية، تمَّت الاستجابة لمطالب سكان المدينة، فأمر السلطان العثماني سليمان واليه على مصر أن يجهز الأموال والعمال والمواد اللازمة لتجديد السور الأول تجديداً كاملاً، و بدئ العمل به عام ٩٣٩هـ ، ١٥٣٢م، واستغرق العمل به ما يقرب من سبع سنوات، حتى تمَّ في ١٥ شعبان ٩٤٦هـ؛ وصار السور بيضاوي الشكل يحيط بالكتلة العمرانية الموجودة آنذاك من جميع جوانبها، طوله ٣٠٠٠م، بارتفاع يتراوح بين ٥ , ١٠ إلى ١٢م، بنيت أساساته بالحجر، وأكمل بالآجر، ووضع عند المنعرجات مجموعة من الأبراج تزيد من متانته، وتؤدي أغراضاً دفاعية أخرى، وفتح في السور أربعة أبواب هي: باب الجمعة أو البقيع، وينفذ للبقيع، وهو (الباب الشرقي)، وباب القلعة (باب الشامي) وهو في الشمال، وينفذ لطريق الجرف وسيدنا حمزة، والباب الصغير (وهو في جنوب الباب الشامي) وينفذ للمناخة للقادم من الشمال بعد دخوله من الباب الشامي، وباب المصري (وهو في الغرب ويسمى باب سويقة) ينفذ للمناخة للقادم من المسجد الشريف من سوق الحدرة.

وقد صرف على هذا السور مبلغ ضخم قُدّر بأكثر من مائة ألف دينار، عدا الخشب والحديد والحبال والرصاص والدهانات. ويعدّ هذا السور أضخم وأقوى وأعلى سور بني إلى ذلك الوقت، وصار يضرب به المثل، ومن ذلك قول أحدهم:

يا من لهم مهجتي والحشاءة،
منازل تزهو ببنيان قلبي،
لكم سور بليغ البناء،

كأنه السور السليماني.

وبعد الانتهاء من بناء السور كتب على الباب الغربي منه: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.

ويُقال: إنه كان آخر أسوار المدينة،[١] وبقي هذا السور المحيط بالمدينة، بعد تجديده مرّات من قبل سلاطين الدولة العثمانية، وأنشأ محمد علي باشا سوراً آخر ربط بين الأبراج والقلاع المشرفة على المدينة في جهتها الغربية والجنوبية.. فيما أجرى السلطان عبد العزيز بن محمد الثاني للسور في عام ١٢٨٥هـ عمارة كبيرة، وجعل ارتفاعه ٢٥متراً، وبنى فيه٤٠ برجاً تشرف على جوانب المدينة الأربعة مزودة بالمدافع والآلات الحربية. وفي زمن عمارة السلطان عبد المجيد للمسجد النبوي فُتح في هذا السور باب سُمي باسمه باب المجيدي، وينفذ لبئر حاء، وتوالت الإصلاحات والإضافات للسور، لتبقيه عامراً حتى هدم بالكامل سنة١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م، ولم يبق منه غير أجزاء من الباب المصري، تم إزالتها نهائياً في السنوات اللاحقة، لينته بهذا زمناً طويلاً يمكن تقديره بألف ومئة وخمس سنوات بين ٢٦٣ ١٣٦٨ هجرية، عاشت فيه مدينة رسول الله ﷺ داخل الأسوار...

من كل هذا نخلص إلى أنّ للظروف الأمنية، والعمرانية، وكذا السياسية،

---

١ . وذكروا أسواراً أخرى، منها ما كان من قبل الشريف حسين بن علي (ت سنة١٣٥٠هـ -١٩٣١م)، قائد الثورة العربية سنة ١٩١٦م ضدَّ الدولة العثمانية متحالفاً مع الانجليز، وأخرج بلاد الحجاز والشام والعراق من سيطرة الدولة العثمانية، ويعدُّ مؤسس الدولة الحجازية الهاشمية، فقد بني سوراً، يعرف بالسور الهاشمي أو بالسور الحسيني، ويظهر فيها كحائط يمتد بإزاء الناحية الشمالية الشرقية للمدينة المنورة، ولم يكن يتصل بالسورين السابقين، هذا قول، يقابله آخر أنه في عام ١٣٤٣هـ أصلح عبد المجيد باشا القائد العسكري للشريف حسين بن علي في المدينة المنورة أجزاءً من السور السابق.

دوراً مهماً وأساسياً، جعلت للمدينة خلال عصور ماضية أكثر من سور، وقد شهدت هذه الأسوار ترميماً وتجديداً وتوسعةً وتغييراً في المساحات التي تحيط بها، وحتى إعادة بناء خلال فتراتها التاريخية المختلفة.. إذن فقد كان سبب إقبالهم على بناء السور حول المدينة، وبحسب ما اتفقت عليه معظم المصادر التاريخية، هو حمايتها من هجمات الأعراب عليها...

ونتيجة لكثرة ما تعرضت له المدينة من فتن وتجاوزات، وتطاول عليها من قبل بعض الأعراب في العهد العباسي، التي خلّفت اضطراب الأحوال الأمنية فيها، تبعها سوء الأحوال الاقتصادية يومها، بدأ عدد سكانها بالضمور تدريجياً، إذ يقدر وقتها بثلاثة آلاف تقريباً، ومساحتها أخذت بالتقلص أيضاً منذ منتصف القرن الثالث في دائرة لا يزيد قطرها عن كيلوين من الأرض، كما يستدل من السور الذي بني حول المدينة في منتصف القرن الثالث الهجري، والسورالذي بني بعد ذلك في القرن الرابع...

ولكن الأمر تغيّر في القرن السادس حيث ازداد عدد سكانها، ولم تعد تتسع لهم المنطقة المحصورة داخل السور، بعد أن بنى لهم نور الدين زنكي عام ٥٥٨ هجرية سوراً ثانياً، طوله أكثر من ضعف السور الأول، مما يدل على أنّ عدد السكان قد زاد على ستة آلاف نسمة.. وقد جُدد السور نفسه بعد قرن من الزمن دون زيادة.

وفي منتصف القرن الهجري السادس تضاعف العمران، وبني سور آخر امتد غرباً أكثر من ضعف السور السابق، وهذا يدل على أنّ الكتلة السكنية حول المسجد النبوي قد توسعت، وأنّ العمران في المناطق البعيدة تضاءل، وتحولت تلك المناطق إلى قرى مستقلة، وخاصة قباء.

إذن فمساحة المدينة تغيرت امتداداً حيناً، وتقلصاً حيناً آخر، حسب

الأوضاع الأمنية والاقتصادية، وما أن استقرت الأوضاع، و ظهرت مساكن خلف السور حتى جدد السور، وكان هذا في العهد العثماني، الذي بلغت فيه المدينة أقصى اتساع لها خاصةً في أواخره، حيث صار دائرة قطرها ٨ كم تقريباً.

الأبواب:

من كل ما أوجزنا ذكره أعلاه، ومن غيره، نجد أنّ كل سور منها قد زوّد بعدد من الأبواب، التي معظمها كان على طراز واحد، بحيث تتكون كتلة الباب المعمارية من فتحة معقودة تقع ضمن حجر معقود يكتنفه برجان في شكل نصف دائرة، وإن وجد فرق بين أحجامها..

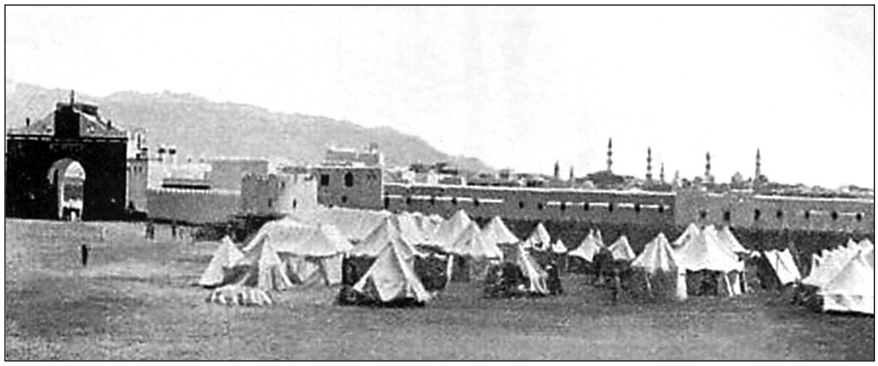

وقد شهدت هي الآخرى في حقبها التاريخية تعميراً، بل وإعادة بناء، وكان كل من التعمير أو البناء مرتبطاً بتعمير وتجديد أسوار المدينة.

فما أن أُعيد بناء السور الأول سنة ٩٣٩هـ ، حتى أعيد بناء بعض أبوابه بالحجر المنحوت المهذب، وبعضها الآخر بالحجر الغشيم، إضافةً إلى تجديدات أخرى في أزمنة أخرى مرت عليه شملت بعض أبوابه، ودونت في نصوص تذكارية على لوحات عملت على بعض هذه الأبواب..

وهكذا السور الثاني، فقد شهد وأبوابه تعميرات وتجديدات حدثت

بعد ذلك، حين لم يبق منه سوى أبراج تحيط بالمنطقة، موزعة على مسافات متساوية، كان ذلك بعد أن أمر محمد علي باشا بعد حروبه مع الدولة السعودية الأولى وبعد سيطرته على الحجاز؛ أن يُبنى سور بين الأبراج أساسه من حجر إلى وجه الأرض وارتفاعه باللبن..

وأما السور الثالث والأخير، فقد شهدت أبوابه هي الآخرى تغيرات في عددها، وما يتوافر عنه من معلومات هو أنه كان يحتوي على أربعة أبواب.[١]

عددها:

فالذي يظهر أنّ أبواب كل من السورين الأول، أو الجوّاني كما أطلقوا عليه، والثاني، وهو البرّاني كما أطلقوا عليه، قد تزايد عدد أبوابهما في حقب زمنية، مرّت عليهما، واختلفت الأقوال في عددها، وهو ما نراه فيما يأتي:

فابن جبير ذكر أنَّ: للمدينة المكرمة أربعة أبواب، وهي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، ويعرف باسمه باب الحديد؛ ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة، وهو مغلق؛ ثم باب البقيع،.. وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب، بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذي صنع النبي صلى الله عليه وسلم، عند تحزب الأحزاب..

وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزاب، وهو خرب، قيل: إنّ عمر رضي الله عنه، بناه لعزاب المدينة.[٢]

ثمَّ أضحت خمسة أبواب في عصر المماليك، وهم سلالة من الجنود حكمت

---

١ . أنظر المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، لمصطفى صالح لمعي: ١٣؛ ومرآة الحرمين، لرفعت إبراهيم١: ٧٦-٧٧؛ وطيبة وفنها الرفيع، لطه حاتم عمر: ٧٦؛ المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، لعبدالعزيز بن عبدالرحمن٢: ٣٨٣ وغيرها.

٢ . أنظر رحلة ابن جبير١: ٧٢ـ٧٣.

كلاً من مصر، والشام، والعراق، وأجزاء من الجزيرة العربية، أكثر من قرنين ونصف القرن، وبالتحديد من١٢٥٠ إلى ١٥١٧م، تعود أصولهم إلى آسيا الصغرى؛ وكذا في العصر العثماني الذي استمر لأكثر قليلاً من٦٠٠ سنة، وبالتحديد من سنة١٢٩٩ إلى سنة ١٩٢٣م.

وهناك قول: إنّ عدد أبواب هذا السور صارت تسعة أبواب، قبل أن يهدم مع بقية الأسوار في سنة١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

وأبواب السور الثاني، كان عددها أربعة أبواب كما هو حال السور الأول. فيما ذكر إبراهيم رفعت في آخر رحلة له للمدينة المنورة، سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) باباً خامساً له. وفي قول آخر أضيف لها ثلاثة أبواب، فصار عددها ثمانية أبواب، وهو ما وجدوه وقت التهديم.

وأما السور الثالث، فقد شهدت أبوابه هي الأخرى تغيرات في عددها؛ وبناءً على ما يتيسّر من معلومات تشير إلى أنه كان يحتوي على أربعة أبواب.[1]

أسماؤها:

هذا وأنّ تلك الأبواب سمّي قسم منها بأسماء بعض الأماكن التي تفتح عليها:

فباب البقيع؛ لأنه يقع في مواجهة مقبرة البقيع ومنه ينفذ إليها.

وباب قباء؛ لأنه يؤدي إلى قباء وما جاورها.

والباب الشامي؛ لأنه يفتح إلى الشمال حيث بلاد الشام، ومنه يدخل حجاج هذه البلاد.

فيما سمّي قسم آخر منها بأسماء بعض الحكام، الذين أمروا ببنائها أوتجديد عمارتها:

---

١ . المصادر السابقة.

فالباب المجيدي، الذي نسب للسلطان عبدالمجيد، الذي جدده عندما جدد عمارة المسجد النبوي الشريف، فيما بين سنتي١٢٦٧ـ١٢٧٧هـ / ١٨٥٠ـ١٨٦٠م.

وباب الحميدية، نسبة للسلطان عبدالحميد الذي جدد عمارته سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٧٧م.[١]

واختلفوا في أسماء هذه الأبواب، بعد أن ذكروا أنها كانت تتوزع على أضلاع الأسوار وقت بنائها كالتالي:

فأبواب السور الأول، وعددها أربعة، هي:

باب شرقي يؤدي إلى البقيع.

باب شمالي يؤدي إلى شهداء أحد.

باب في الناحية الشمالية الشرقية.

باب غربي يؤدي إلى قباء جنوباً.

في حين قال عنها المقدسي:

باب البقيع (شرقاً) وهو يواجه مقبرة البقيع.

باب الخندق، وربما كان يقع في الناحية الشمالية للمدينة المنورة، حيث الخندق ومساجد الفتح.

وباب الثنية في شمال غربي السور حيث يواجه ثنية الوداع، وتقع شمال غربي المدينة المنورة على طريق الشام.

وباب جهينة ويرجح أنه كان في الضلع الغربي لأسوار المدينة.

ويبدو أنّ هذه الأبواب هي التي ذكرها ابن جبير، وإن أطلق على بعضها

---

١ . أنظر رحلة ابن بطوطة١: ١٣٨؛ مرآة الحرمين، لإبراهيم رفعت١: ٤١٣.

أسماءً أخرى.

وأضاف صالح لمعي باباً خامساً، ذكر بأنه كان مسدوداً في تلك الحقبة، استناداً على وصف السمهودي للمدينة في عصره.

وأما في العصر العثماني، فمصادره تتحدث عن توزيع أبواب السور الأول بالتالي:

باب البقيع: وكان يعرف أيضاً بباب الجمعة، وكان يقع في الضلع الشرقي للسور. و كان يؤدي الى البقيع وما حوله.

باب المجيدي: في الضلع الشمالي من السور، وذكر ابراهيم رفعت بأنه (باب محدث). ويقصد بذلك من ناحية بنائه حيث جدد عمارته السلطان عبدالمجيد، عندما جدّد عمارة المسجد النبوي الشريف.

باب الشامي: وهذا الباب كان يقع في أقصى الناحية الغربية للضلع الشمالي، بالقرب من قلعة المدينة المنورة؛ يضاف الى ما سبق أنّ إطلاق اسم الشامي عليه يشير إلى اتجاهه شمالاً حيث بلاد الشام؛ وقد جرت العادة في الحجاز، حتى في الوقت الحاضر، إطلاق اسم (شام) للاتجاه الشمالي، و (يمن) للاتجاه الجنوبي.

الباب الصغير: إلى الجنوب من الباب السابق، كان يقع على الضلع الغربي لسور المدينة.

الباب المصري: إلى الجنوب من سابقه، كان موقعه في الضلع الغربي لسور المدينة.

وعند تهديم الأسوار تشير المعلومات إلى أنها في السور الأول كما ذكرنا، كانت تسعة أبواب على النحو التالي:

باب البقيع، ويعرف أيضاً بباب الجمعة.

باب الوسط، ويذكر بأنه كان يقع عند مثلث السور.

باب الحمام، أو ما كان يعرف بباب ذروان.
باب القاسمية، أو ما كان يعرف بباب الشونة.
باب المصري، أو ما كان يعرف بباب السويقة.
باب الشامي الصغير.
باب الشامي الكبير.
باب بصرى أو بصره.
باب المجيدي.[1]

أبواب السور الثاني: والذي بُني حتى يحيط بضواحي المدينة الغربية والجنوبية.

لعلّ وصف ابن جبير، يُعدُّ أقدم وصف له حيث استفاد بعضهم من قوله: إنّ لهذا السور أربعة أبواب تناظر أربعة أُخر في السور الأول.

فيما بعض مصادر المدينة المنورة في العصر العثماني تقدم وصفاً تفصيلياً لأبواب هذا السور:

ـ باب العوالي من الشرق، ويقصد به هنا الجزء الشرقي من ضلع هذا السور والذي كان يحيط بالضواحي الجنوبية.

ـ باب قباء، إلى الجنوب من الباب السابق، وكان يفتح عى الناحية الجنوبية.

ـ باب العنبرية، وكان في الضلع الغربي للسور.

ـ باب الكومة، وكان في الناحية الشمالية؛ ولا شك أنّ ذلك الباب هو الذي عُرف أيضاً بالباب الشامي الصغير، ومن هذا الباب يتوصل إلى (المساجد

١ . أنظر ابن بطوطة في رحلته١: ١٣٨؛ وأيضاً رحلة ابن جبير؛ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، للسمهودي؛ ورحلة المقدسي؛ ومرآة الحرمين، لإبراهيم رفعت باشا؛ المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، لمصطفى صالح لمعي؛ وغيرهم ممن كتب عن المدينة المنورة.

الأربعة الموضوعة بغربي جبل سلع، عند غار بني حرام، فيكون مروره منه، ومنه يتمُّ إخراج الغنم للذبح، وإدخالها بعد نقل المجزرة من المحل القديم إلى خارج البلدة).[١]

يضيف إبراهيم رفعت باشا للأبواب السابقة باباً خامساً في الناحية الشرقية، ذكر اسمه بصيغة التشكيك، حيث قال عنه: (ولعل الثاني باب الكوفة).

فيما ذكر أنّ هذا السور ضمَّ سبعة أبواب، كانت موجودةً فيه قبيل تهديمه، وهي على النحو التالي:

باب العوالي.
باب قباء .
باب المغيسلة.
باب العنبرية.
باب السكة الحديد.
باب البرابيخ.
باب الكومة.[٢]

أما أبواب السور الثالث:

الذي يبدو أنّ فيه اختلافاً بينهم، أو في تسميته، حيث ذكروا أنه هو الذي يسمى (الهاشمي) ويسمى أيضاً (الحائط الحسيني)، له أربعة أبواب هي: باب الأبارية. باب الصدقة. باب التمار.

---

١ . أنظر وصف المدينة المنورة، لعلي بن موسى؛ ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة نشر: حمد الجاسر: ٧، ٥٥.

٢ . مرآة الحرمين، لإبراهيم رفعت باشا: ١ ٤١٣؛ المدينة، عبدالعزيز كعكي: ٣٩١.

باب الشهداء. ولم يحدد مواضع هذه الأبواب على هذا السور.[١]

إذن وفي ضوء ما سبق يتضح أنّ هناك من أبواب المدينة ما هو قديم، قدم أسوارها، مثل: باب البقيع، الذي ذكرته المصادر في الحقب التاريخية المختلفة، وباب الشامي الكبير، الذي من المؤكد أنه هو الباب الذي أسماه المقدسي في رحلته بباب الثنية، لأنه يقع في موضع باب الشامي الكبير.. من جانب آخر هناك أبواب أضيفت في مراحل تاريخية لاحقة..

وختاماً، لا بدّ لي من الإشارة إلى أنّ المدينة قد تعرضت في تاريخها إلى محن وفتن عديدة، كان منها استباحتها بعد قيام يزيد بشنّ حملة عسكرية على أهل المدينة الذين خلعوه، سُميت بالحرة عام ٦٣ هجري، وهي منطقة شرقي المدينة. وبلغ جيش الأمويين حوالي ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة مسلم بن عقبة؛ وقتل من أهل المدينة ١٠٠٠ رجل معظمهم من الأنصار والمهاجرين.. عن الإمام مالك: قتل يوم الحرة (٧٠٠) رجل من حملة القرآن، وأرسلت رؤوس القتلى إلى يزيد، وكل هذا كان بعد أن صدر أمر من يزيد بن معاوية لقائد جنده: «فإن ظهرتَ عليهم فأبحها ثلاثاً فما فيها من مال أو سلاح أو طعام، فهو للجند، فإن مضت الثلاث فأكفف عن الناس». فقد تمَّ انتهاك حرمة المدينة، وهي مدينة مقدسة عند الله ورسوله والمسلمين، فلا يحل فيها القتال.. إنَّ ما أصاب المدينة كان خسارة فادحة للأمة.[٢]

واختم قولي بقصيدة الشيخ محمد بن أحمد العمري الواسطي (١٢٨٠ـ١٣٥٠هـ)، التي قالها في فظائع الحرب العالمية الأولى التي شهدتها

١ . أنظر المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، لعبدالعزيز كعكي:٣٩١.

٢ . أنظرما كتبه في هذا كل من سيد أمير علي، تاريخ العرب:٧٥؛ ومحمد أبوالفضل إبراهيم، أيام العرب في الإسلام : ٤٢٣؛ و ابن كثير، البداية والنهاية:٢٢٩؛ و محمد الخضري، الدولة الأموية : ٣٢٩.

المدينة ومنها تهجير أهلها وتشتيتهم، ومما جاء فيها:

دارَ الهدى خفَّ منكِ الأهل والسكنُ ... واستفرغت جهدها في ربعكِ المحَنُ
عفا المصلى إلى سلع إلى أحد ... والحرتان، ومرأى أرضها الحسن
أقوى العقيق إلى الجَمّا إلى أحدٍ ... إلى قباءَ التي يحيا بها الشجن
منازلٌ شبَّ فيها الدين واكتملت ... آياته فاستعارت نورها المدن
لأي أرضٍ يشُدّ الرحلَ راكبُه ... يبغي المثوبة أو يشتاقه عطن؟
أبعد روضتها الفيحا، وقبتها الخضراء ... يحلو بعيني مسلم وطن؟
ما غوطة الشام؟ ما نهر الأُبلَّة؟ ... ما حمراء غرناطة ما مصر ما اليمن؟
كل المنى في رحاب المصطفى جمعت ... دنيا ودين فما في مثلها ثمن
منازل نفحت بالطيب واكتملت ... بالنور يأوي لها الفرقان والسنن
ما كنت أعرف ما للشوق من أثر ... حتى ترحل بي عن ربعها البدن
يا راكباً حملت شوقاً مطيته ... نضوا تغوله الأحزان والشجن
قد أرغم الدهر أنفى إذ أفارقها ... مروعاً قد جفاني النوم والوسن

إلى أن يقول:

يا أهل طيبة والآلام عاصفة ... والناعيات يبكين الأولى دفنوا
عودوا إلى الله، علَّ الله يسعفكم ... من فتنة دونها الأهوال والفتن.[1]

١ . أنظر (الشعر الحديث في الحجاز) عبدالرحيم أبو بكر؛ وفي معجم البابطين، لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.